علم النفس المعرفي

(النظرية المنهج و الموضوع)

الدكتور لياس شرفة

جامعة الشاذلي بن جديد ـ الطارف ـ

الملخـــص:

حاولنا في هدا المقال التطرق لأحد تخصصات العلوم الاجتماعية و الإنسانية التي تدرس مجال واسع من حياة الفرد ألا و هو علم النفس بكل حيثياته العلمية و السلوكية و تقاطعاته النظرية و البحثية مع غيره من العلوم التي تبحث في الفرد و المجتمع معا.

أد تحدثنا عن علم النفس المعرفي و اهتماماته النظرية و المنهجية و المواضيع التي يدرسها و يعالجها اكادميا و ميدانيا. من خلال مدارسه الكبرى المعروفة كالوظيفية و البنائية و السلوكية. ...و غيرها كما تطرقنا لنشأة هدا التخصص و حداثته المعرفية. و اهتماماته المنهجية في معالجة مواضيع هامة و ضرورية للفرد و الظاهرة الاجتماعية.

1- المدارس الأنسانية في علم النفس :

كان هناك محاولات لفهم الطبيعة الإنسانية ظهرت قبل نشأة علم النفس العلمي، وتعتبر هذه المحاولات قديمة قدم التاريخ المدون نفسه، فأوّل المحاولات لشرح الطبيعة الإنسانية كانت تعتري شعور الإنسان الواعي إلى روح داخليّة أو كائن داخلي صغير يسكن في مكان ما من جسم الإنسان، وبعد ذلك حاول المفكرون اليونانيون من أمثال "أفلاطون" « **Plato** »، و "أرسطوطاليس" « **Aristotle** » الحديث عن الروح « **psyche** »، تحدثوا عنها كمركز للخبرة، ولقد اشتق علم النفس اسمه من هذه الكلمة.

وفي العصور المتقدة، استمر الفلاسفة في وضع النظريات عن طبيعة الخبرة والسلوك الإنساني، ففي عام 1690، كتب الفيلسوف الإنجليزي "جون لوك" « **John Locke** » في مقال له حول الفهم الإنساني يؤكد أن المعرفة الإنسانية تكتسب خلال الحياة، وليست موروثة، أي ليست مؤسسة أو قائمة على أفكار فطرية موروثة، ولقد تصادف وأكّدت التجارب الحديثة أن قولة "لوك" كانت صادقة، ولكن كان من الممكن أن تكون خاطئة، ولم يكن هناك وسيلة لإبراز الحقيقة، إنه بدون القياس الموضوعي تصبح النظريات مجرد تخمين مهما كانت برّاقة وجذّابة[1].

1-1 المدرسة البنائيّة :

في عام 1879، أسّس "وليام فونت" « **William Wundt** »، وهو من علماء الفسيولوجيا الألمان، علم النفس كعلم مستقل، وذلك بإنشاء أوّل معمل تجريبي لعلم النفس، وأجرى دراسات مبكرة على ظواهر الإحساس والتخيّل، وبعد ذلك بقليل ظهرت معامل أخرى لعلم النفس في أوربا وأمريكا[2].

ولقد أطلق على "فونت" وأتباعه : أنصار المدرسة البنائيّة أو البنائيّين (**structuralistes**)، ذلك لأنّهم كانوا يدّعون أنّ الخبرات العقليّة المعقّدة ما هي إلاّ تركيبات مكوّنة من حالات عقليّة بسيطة مثل المركبات الكيماويّة التي تتكوّن من عناصر كيماويّة بسيطة، وافترضوا أنّه من وظائف السيكولوجيّ أن

يدرس تراكيب الوعي أو الشعور وأن يضع القوانين التي تشرح تكوينه، أمّا منهج البنائيّة فكان عبارة عن التحليل الاستبطاني، أي : تحليل الخبرات الشعورية عن طريق الاستبطان.

2-1 المدرسة الوظيفيّة :

في حوالي عام 1899، نشأت مدرسة من مدارس على النفس، أسّسها بعض العلماء الذين لم يرضوا عن اتّجاه البنائيّة في التوكيد على الحالات العقليّة، فبدلا من التساؤل كما فعل البنائيّون : ما هو الشعور ؟، اهتمّ أنصار المدرسة الوظيفيّة بسؤال آخر هو : لماذا يوجد الشعور ؟ أي : ما هي أغراضه أو أهدافه أو وظائفه ؟ ونظرا لأنّهم أرادوا معرفة كيفية استخدام الناس للخبرة العقليّة في التكيّف مع البيئة، فقد أطلق عليهم اسم "الوظيفيّين"، ومن قادة المدرسة الوظيفيّة "وليام جيمس" « **William James** » و "جيمس أنجيل" « **Games Angel** »، وفي الواقع أرادوا أن يركزوا انتباههم على دراسة عملية التعلم، كذلك كان من أشهر زعمائها "جون ديوي"« **John Dewey** » الفيلسوف والتربوي الأمريكي الشهير.

3-1 مدرسة التحليل النفسي :

في أوائل الفترة من سنة 1900 عندما انفصلت المدرسة الوظيفيّة عن المدرسة البنائيّة، شهدت أيضا هذه الفترة تأسيس مدرسة سيكولوجيّة أخرى هي " مدرسة التحليل النفسي

"، ولقد ساعد على ظهورها حدوث تقدم في مجال الطب النفسي والتنويم المغناطيسي، ولقد قاد حركة التحليل النفسي عالم النفس السويسري " سيجمند فرويد " **Sigmund** » « **Freud** وركّز اهتمامه على العمليّات العقليّة اللاشعوريّة، ولقد كان "فرويد" رجلا من رجال الطب العقلي وفي الأعصاب، وكان يهتم في المحل الأوّل بفهم وعلاج الاضطرابات العقليّة، ولم يكن لديه إلاّ اهتمام قليل جدّا بالمشاكل التقليديّة الأكاديميّة في علم النفس مثل طبيعة الإحساس أو الإدراك أو التفكير أو الذكاء، ولذلك أهمل فرويد مشكلة الشعور ووجّه جهوده نحو فهم ووصف ما أسماه اللاشعور، وفي نظره كان هذا الجزء من الحياة العقليّة لا يمكن سبر أغواره أو ارتياد مجاهله بمناهج علم النفس السائدة في أيّامه، أي منهج الاستبطان أو منهج التجريب العملي، وتبعا لفرويد، أصبح علينا أن نبحث عن المصادر الأوليّة للصراعات والاضطرابات العقليّة في أعماق اللاشعور، فاللاشعور هو مستودع الآمال والرغبات المكبوتة التي تؤدّي إلى ظهور الاضطرابات القليّة ومن أجل ذلك أي من أجل دراسة ظاهرة اللاشعور ابتكر "فرويد" منهجا خاصّا هو منهج التحليل النفسي، ويقوم هذا المنهج على أساس تفسير أفكار المريض، تلك الأفكار التي تنساب انسيابا حرّا بفعل التداعي الحر، وكذلك عن طريق تحليل أحلام المريض، هذه النظريّة كانت تمثّل في وقتها خروجا في علم النفس على المضمون والمنهج السائدين في وقته. وعبر السنين، جذب منهج التحليل النفسي كثيرا من الأنصار والمؤيّدين، كما خلق كثيرا من الأعداء والمعارضين، وأدّى ذلك إلى حدوث كثير من التطوير والتعديل في هذا المنهج[3].

4-1 المدرسة السلوكيّة :

في خلال الحرب العالميّة الأولى (من 1914 إلى 1918)، ظهر مجموعة من علماء النفس في أمريكا أطلقوا على أنفسهم اسم "السلوكيّين"، وكانت السلوكيّة كمدرسة التحليل النفسي لا تهتمّ بالشعور، وكانت تتشكّك في قيمته، ولقد كان من أشهر روادها "جون

واطسون" (**John Watson**)، وكان اهتمامه الأساسي بإجراء التجارب على الحيوانات ولم يكن للمناهج المعروفة في عهده أي فائدة في هذا النوع من التجريب، فلم يكن الشعور أو الاستبطان أو اللاشعور من المناهج ذات القيمة العملية بالنسبة للتجارب التي تجري على الحيوان، تلك التجارب التي اهتمّ بها واطسون، وبطبيعة الحال، كان أول ما يلاحظه المجرب هو السلوك أي سلوك الحيوان، وكانت فكرة السلوك هي أهم فكرة عند السلوكي لأنه موضوعي ويستبعد الذاتيّة المتضمّنة في دراسة الشعور والاستبطان والتداعي الحر من اللاشعور. نقل السلوكيون هذا المنهج التجريبي من دراسة سلوك الحيوان إلى دراسة سلوك الإنسان، ولقد اعتمد السلوكيون اعتمادا كبيرا في الفسيولوجيا، أي علم وظائف الأعضاء، ولذلك كانت أعظم إضافاتهم لعلم النفس هي دراستهم للاستجابات الشرطية، وعلى الرغم من أنّ آراء السلوكية قابلت بعد ذلك كثيرا من التحدي والنقد، إلا أن اتجاهها الموضوعي انتقل إلى علم النفس المعاصر، وخاصة في أعمال "كلارك هل" « **Clark Hull** » و "إدوارد تولمان" « **Edward Tolman** » وغيرهما.

5-1 مدرسة الجشطالت :

في أثناء الحرب العالمية الأولى، أجرى أحد العلماء الألمان واسمه "ولفجانج كهلر" « **Wolfgong Kohler** » عدة تجارب على عملية التعلم عند القردة، ولقد أقنعته هذه التجارب بأهمية عملية الاستبصار في عملية التعلم. فالتعلم في نظره يتم عن طريق الاستبصار أي : الفهم العام لعناصر الموقف الذي يوجد فيه الكائن الحي، فأيّدت تجارب "كهلر" نظريّة رجل آخر يدعى "ماكس ورذيمر"« **Max Werthemir** » أنّ الخبرة ككل تعتبر أكثر أهمية من عناصرها أو أجزائها في تحديد معناها، فالكل له معانٍ أكثر من مجرد تجميع معاني

أجزائه جزءا جزءا، ومدرسة الجشطالت استمدت اسمها من كلمة ألمانية معناها الصيغة، والصيغة في مدركاتنا الحسية تتكون من شكل وأرضية بحيث يكون الشكل قويا وبارزا وواضحا، أما الأرضية فتكون أقل بروزا ووضوحا. ومن أمثلة الصيغ الصورة أو اللوحة المرسومة أو الرسم على القماش، حيث تمثل الزهور أو الزخارف الشكل، ويمثل القماش وما يوجد به من فراغات غير مرسومة الأرضية[4].

2 علم النفس المعاصر :

هناك كثير من علماء النفس الذين يعتقدون أن الحقيقة السيكولوجيّة لا يمكن أن تكون حكرا على مدرسة معينة واحدة، ونظرة سريعة لما سبق توضّح لنا أنّ هناك موضوعات مختلفة اهتمّت بها المدارس الخمس المختلفة، وعلى ذلك، فهذه المدارس الخمسة تمثّل أصابع اليد الخمسة بدلا من أن تمثّل خمسة أيدٍ يختلف كلّ منها عن الآخر، فلكلّ مدرسة موضوع رئيسيّ خاص، فعلى حين اهتمّت المدرسة البنائيّة بدراسة الإحساسات، اهتمّت مدرسة التحليل النفسي بدراسة اللاشعور وهكذا، وإلى جانب ذلك، فإنّ لكلّ مدرسة جانبا من الصواب، فهذه المدارس تتناول موضوعات مختلفة، ولكل مدرسة مناهجها الخاصة، هذا وإن كان الاهتمام في علم النفس الحديث لم يعد يركز على فكرة المدارس[5].

3- حداثة نشأة علم النفس بالنسبة لغيره من فروع العلم والمعرفة :

إنّ الكتّاب الذين وصفوا أنفسهم بأنّهم من علماء النفس لم يظهروا إلاّ في أوائل القرن الحالي، وإن كان هذا لا يمنع من وجود تأثير كبير على الفكر السيكولوجي من كتابات الفلاسفة السابقين، وكذلك من كتابات علماء الحياة.

ومن مظاهر هذا التأثير الفلسفة الترابطيّة، وسيكولوجيّة الملكات، والدروينيّة، فمن التأثيرات الفلسفيّة الترابطيّة وما عبّرت عنه عن تكوين العقل الإنسانيّ، ومؤدّى هذا أنّ محتوى العقل بتكوّن من ترابط الأفكار، فالأفكار عبارة عن صور ذهنيّة أو أنماط من هذه

الصور الذهنيّة التي تكوّنت أساس من الإحساس، وكانت هذه الأفكار تترابط طبقا لمجموعة من المبادئ مثل مبدأ التشابه والتضاد والتقارب.

فالتقارب يعني أنّ الأفكار التي حضرت إلى الذهن في وقت واحد تترابط مع بعضها أسهل من تلك الأفكار التي تحضر إلى الذهن في أوقات متباعدة. أمّا مبدأ التشابه فيعني أنّ الأفكار المتشابهة تترابط مع بعضها أسهل من الأفكار غير المتشابهة، والأفكار المتضادة يسهل ترابطها عن تلك الأفكار التي لا يوجد بينها أي ترابط، وتذهب الترابطية إلى أبعد من ذلك، فتقرر أنّه لا يوجد فروق موروثة في عقليات الناس، وإنما الخبرة هي المسؤولة عن وجود هذه الفروق. ونستطيع أن نلمس بوضوح تأثير الفلسفة الترابطيّة في كثير من نظريّات التعلّم التي تؤكّد أهمّيّة دور الخبرة في تغيير السلوك[6].

4- المنهج والمحتوى في البحث :

إنّ الفكرة هي البذرة، والمنهج هو الأرض التي توفر الظروف التي ربما تنمو في وسطها (البذرة) وتزدهر وتعطي أحسن الثمار طبقا لطبيعتها، ولكن فقط ما يبذر في الأرض هو الذي سوف ينمو فيها، وعلى ذلك فلا شيء سوف ينمو بالمنهج التجريبي ما لم تقدم له الأفكار (البذور). إن المنهج ذاته لا يعطي ميلادا لشيء ما (أو لا يتولد عنه). .. (عن "كلود برنارد" « **Claude Bernard** » 1865) يتكون البحث السيكولوجي من عدد مختلف من أنواع النشاطات، أحد هذه النشاطات عبارة عن تكوين واختيار مشكلات البحث، وهذا النشاط هو الذي يعطي للباحث دوره الخلاّق، ونوع ثانٍ هو عمل الملاحظات وجمع الحقائق الملائمة لمشكلة ما، هذا الاجتهاد يعضد نمط العالم التقليدي الشهير كرجل تقني فني يمزج المواد الكيميائية في أنابيب الاختبار، ويضع العناصر في أجهزة تحطيم الذرات النووية، ويقرأ المؤثرات على اللوحات المدرجة (مينا الجهاز)، ونشاط ثالث هو تناول وتحليل الحقائق، وهذا يغذي فكرة صورة العالم كشخص يتلاعب بالأرقام كالساحر،

يضع المعادلات ويرسم الأشكال المختلفة، ونشاط رابع عبارة عن الشرح أو استخراج المعاني من المعطيات، ويعطي هذا للباحث دور مصمّم النظريات ودور المفكّر، ونشاط خامس يتضمّن الاتّصال أو كتابة تقارير عن النتائج لغيره من الزملاء هذا النشاط، أكثر من أي نشاط آخر، هو الذي يعطي للعالم سمعته في الغموض والإبهام وصعوبته على الفهم[7]. هذه الخطوات يتّصف بها البحث في العلوم الأخرى كما يتّصف بها في علم النفس.

إنّ ما يميّز البحث السيكولوجيّ عن البحث الفيزيقيّ أو الحيوي ليس هذا النوع من النشاط، ولكنّه هو موضوع البحث ، أي عمّاذا يدور البحث ؟

إنّ الموضوع الخاص هو ما تدرسه أنت في مقررات علم النفس، مثل هذه المقررات التي تحمل أسماء كالتعلم، الإحساس، الإدراك، الدافعية والانفعال، التنشئة الاجتماعية، التفكير وحل المشكلات، الشخصية والذكاء. إنّ كوننا نستطيع، بل ونتكل فعلا، عن المنهج والمحتوى بانفصال لا يعني أنّ هذه الجوانب من علم النفس يمكن أن نتعامل معها منفصلة في البحث. في الحقيقة، كما سوف نلاحظ فيما بعد، عندما يدرس عالم النفس موضوعا ما دون اعتبار دقيق لكيفية تفاعل مناهجه مع مفاهيمه، فإنه في الغالب سوف ينتهي بنتائج عديمة المعنى أو غامضة، وعلى العكس، فإن هناك بعض السيكولوجيّين الذين ارتبطوا بمناهج معينة لدرجة أنهم يتركونها تملي عليهم موضوع بحثهم.

كلا الطرفين بطبيعة الحال، ينتهي ببحث مبذر قبل أن نتوسع بدقة في الرابطة الوثيقة بين المنهج والمحتوى (المضمون)، يجب أن نوضح المعنى الذي نستخدم فيه اصطلاح "المحتوى".

إنّ كل بحث خاص يتعامل مباشرة مع أحداث مشخّصة فريدة.

إن السيكولوجي مثلا قد يدير نغمة ذات 1000 ذبذبة لمدة 5 ثوان قبل أن يسلط صدمة كهربية على قدم كلب ما، أو ربما يكلف حكما بانتقاء مجموعة من الألوان طبقا لتفضيلاته. كل من هذين الموقفين جد فريد ومعقّد، قد يكون الكلب هجينا أو من جنس

مختلط، التقطه الباحث من الشوارع وليس له تاريخ معروف، وقد يعوي ويكشر عن أنيابه ويهزّ ذيله ويحاول أن يهرش موضع حشرة ما، أو يندمج في عدد آخر من الحركات بينما هو يسمع تلك النغمة. والمجرّب الذي أدار النغمة ربما يكون مشغولا بالتفكير في المشاجرة التي حدثت بينه وبين زوجته، والحكم الذي يقوم بتصنيف الألوان ربما يكون قد طلق حديثا (من زوجته) أو يعاني من نوبة خفيفة من الربو، ويشارك في التجربة لكي يخلص عقله من متاعبه، كل هذه التفاصيل وكثير غيرها تتّصل بأحداث معيّنة، ويلاحظها السيكولوجي، كل هذا لا يكون محتوى البحوث السيكولوجيّة[8].

إنّ البحث العلمي لا يكون حول أحداث خاصّة وإنّما بدلا من ذلك في أي بحث يختار الباحث من بين الأحداث الخاصّة فقط بعض الجوانب التي تعامل كأمثلة لأحداث أخرى أكثر عمومية وأكثر تكرارا. إن المزاوجة بين النغمة والصدمة تؤخذ كمثال لما نسميه اشتراط الأحجام. بعد عدد من هذه المزاوجة بين النغمة والصدمة، سوف يتعلم الكلب أن يرفع رجله عند سماع النغمة، ومن ثمّ يجتنب الصدمة.

هذه العلاقة بين النغمة واستجابة الرجل تعتبر كمثال للمنعكس الشرطي، ويفترض أنّ هذا المنعكس الشرطي يمكن أن يتكون من حيوانات أخرى في مواقف أخرى، وبعبارة أخرى، إنّ البحث السيكولوجي يكون حول شيء يمكن أن يتكرّر ملاحظته – مفهوم وعلاقة بين المفاهيم. إنّ الحدث الخاص – أي هذا الكلب المهجن في المعمل في ذلك اليوم المعين– لا يمكن أن نلاحظه مرّة أخرى، ولكن على افتراض أنّه يتعامل مع قانون الطبيعة، فإنّ السيكولوجي يأمل أنّ الحدث –أي المزاوجة بين مثير شرطي مع مثير غير شرطي مع الرابطة الجديدة التي نتجت بين المثير والاستجابة– هذه قابلة للتكرار.

5- التفاعل بين الموضوع والمنهج :

إنّ البحث السيكولوجي، ككل بحث علمي، إذن هو حول المفاهيم وعلاقاتها الداخليّة. إنّ المدارس برمّتها في علم النفس نستطيع أن نتعرّف عليها في ضوء نوع المفاهيم التي تحتويها أو التي تحذفها من مجال علم النفس.

عندما أسّس "فيلهلم فونت" « **Wilhelm Wundt** » أول معمل في علم النفس التجريبي سنة 1879 عرف علم النفس كدراسة عناصر الخبرة الشعورية الواعية، وبالنسبة له، كانت العناصر الأولية للوعي (الشعور) كانت إحساسات نقية، ولي يدرس هذه المحتويات الأوّليّة للشعور وضع أشخاصا بالغين في تدريب موسع في الانتباه لكي يسجلوا له الإحساسات النقية فقط –بقع من الضوء، روائح، أصوات– إحساسات مجردة أو منتزعة أو عارمة من تفسيرها، ولقد أطلق الباحثون اللاحقون على هذا النوع النفس البنائية، وأداتها المنهجية الرئيسية أطلقوا عليها الاستبطان، علاوة على معمل "فونت" في "ليبزيج" « **Leipzig** »، كانت المراكز الرئيسية لعلم النفس البنائي في جامعة وايزبرج في ألمانيا وجامعة كورنل في الولايات المتحدة الأمريكية.

، ولقد أتت للبحث السيكولوجي قوة دافعة لحركة من التقدم الذي حدث في مجال علم الصيدليات أو علم تركيب العقاقير، وعلم الحيوان والرياضيات والإحصاء. ومن خلال حقل علم النفس نفسه حدث تقدّم مفاجئ في المعرفة وحدثت تغيرات في موضوع البحث تبعت التقدم الذي حدث في أساليب قياس الاستجابات، وقياس الاتجاهات، وقياس المعاني، وهكذا.

على الرغم من وجود هذه العلاقة المتبادلة بين المحتوى والمنهج، فإنها ليست كاملة. إن المناهج تستطيع أن تعيش لفترات طويلة حتى بعد أن يكون النظام التصوري الذي أدّى إلى نشأتها قد تمّ نبذه أو رفضه أو تكذيبه، وهذه الحالة بالنسبة للمناهج السيكولوجيّة الخاصة "بفكنر" « **G.T. Fechner** » في قياس العتبات الحسية – هذه المناهج مازالت تستخدم

حتى اليوم، ولكن في ضوء إطار تصوري مختلف عن ذلك الخاص بمنبعها أو منشئها. وبالمثل، تستطيع النظم التصورية أن تعيش مع مناهج غير ملائمة، فعلماء النفس مازالوا يحاولون دراسة عمليات التفكير، ولكنهم رفضوا الاتجاه الأصلي لهذا النشاط عن طريق الاستبطان الكلاسيكي (أو التقليدي).

إنّ كون المناهج قابلة للفصل عن موضوعها الأصلي يمثل خليطا أو مزيجا من الخير والشر معا، فمن ناحية، من الواضح أن تطبيق مناهج نمت من أجل غرض معين، تطبيقها على موضوعات جديدة في الغالب ما ينتج عنه تقدّم مفاجئ وخلاّق. إنّ هذا ما حدث في علم النفس، فعلى سبيل المثال، عندما سئم "لويس ثرستون" **Lowis** « **L.Thurstone** » من دراسة تقدير الوزن، استبدل ذلك بمثيرات شيّقة كوسيلة لتدريس المناهج السيكوفسيوجيّة. إنّ هذه النتيجة كانت حقلا كاملا جديدا في قياس الاتجاهات ووضع المقاييس، ولقد لعبت دورا له دلالته في نمو علم النفس الاجتماعيّ كعلم تجريبيّ.

6- استخلاص القوانين العلميّة أو النظريّات :

تعرف القوانين العلمية على أنها صيغ تعبر عن علاقات ثابتة بين ظواهر معينة كقانون الجذب العام وقانون تمدد الأجسام.

ويعتبر استخلاص القوانين العامة الخطوة النهائية أو النتيجة النهائية لأي تفكير علمي، وتساعد على تركيز كل الحقائق العلمية في صورة نظريات أو قواعد عامّة.

يعتبر هذا أعلى ما يصل إليه التفكير العلمي للإنسان، ولا يمنع ذلك من اكتشاف حقائق جديدة في المستقبل قد تغير من النظريّة العلميّة السائدة.

7- خصائص النظريّة العلميّة :

1- *أن تكون المفاهيم التي تنطوي علي القضايا محددة بدقّة*

2- *أن تكون القضايا متناسقة كلا مع الأخرى*

3- *أن تصاغ في شكل يجعل من الميسور اشتقاق التعميمات القائمة اشتقاقا استنباطيّا*

4- *أن تكون تلك القضايا خصبة ومثمرة وتكشف الطريق إلى ملاحظات أبعد مدى وإلى تعميمات تنمّي مجال المعرفة*

وليست هناك نظريّة نهائيّة في أيّ علم من العلوم، كما أنّه ليس هناك قانون نهائيّ، ذلك لأنّه من خواص العلم أنّه نامٍ ومتطوّر ومتغيّر.

ومعنى هذا أنّ النظريّة وسيلة وغاية في نفس الوقت، أي إنّها وسيلة للتفسير وغاية نريد أن نصل إليها تكون أقدر على السيطرة على العالم المحيط بنا.

ومن هنا، فإنّه عندما نجد أنّ النظريّة قاصرة على أن تحقّق لنا ما نريده منها، تصبح غايتنا الوصول إلى نظريّة أخرى أنفع من هذه التي انخفضت فائدتها[9]*، كما أنّ استخدام النظريّة في تطبيقات جديدة يعطيها قوّة، إذ أنّه نتيجة لاستخدامها في حالات جديدة مناسبة تثبت صحّتها وتصبح في صورة قانون علمي معترف بع سواء في العلوم الطبيعية أو الإنسانية.*

8- التفكيـر المنهجي في العلـوم الإنسانيّـة :

العلم لا يكون علما إلاّ بالمنهج الذي يستخدمه، فالعلم منهج قبل أن يكون موضوعا أو مجموعة من المعارف أو النظريات، لأننا لا نستطيع أن نتوصّل إلى المعارف العلميّة بدون استخدام منهج علميّ، وبصفة عامّة يمكن القول بأنّ دراسة السلوك الإنسانيّ تتمّ بعدّة طرق أو مناهج تستخدم بالفعل في العلوم الإنسانيّة كما هو الحال في المنهج ألاسترادادي أو التاريخي أو المنهج التحليلي والمنهج الإحصائي. ويلجأ الباحث في العلم الإنساني الواحد إلى استخدام أكثر من منهج، وخاصة المنهج التجريبي الخاص بالعلوم الطبيعية أو المنهج الاستدلالي الخاص بالرياضيات أو الاستنباطي الخاص بالأحوال النفسية، مستهدفا دراسة ظواهر سلوكيّة معيّنة يتناولها بالملاحظة الدقيقة والتحليل بغرض فهمها أو تفسيرها أو التوصل

إلى القوانين العامة التي تحكم أطرادها لأنّ العلم لا يكتفي بالوصف أو التقرير فقط، بل يتعدّى هذا بالتفسير.

وعادة ما يتمّ التفسير في العلوم الإنسانيّة عن طريق التعرّف على أسباب حدوث الظواهر أو أسباب تغيّرها كمعرفة أسباب المرض النفسي أو العقلي.

ومعرفة الأسباب كأساس لفهم الظواهر السلوكيّة المختلفة تقوم على تصوّر علاقات تربط بينها وبين ظواهر أخرى، وغالبا ما تكون الظواهر الأخرى سابقة عليها أو مصاحبة لها. فالمرض يسبق العرض أو الألم الذي يعاني منه المريض ولولا المرض ما كان العرض. كما أنّ العلوم الإنسانيّة تهدف إلى التعميم المرتكز على الفهم والتفسير، فالظاهرة الواحدة التي نفهمها ونفسرها لا ينبغي أن يكون فهمنا أو تفسيرنا لها وفقا عليها وحدها.

حتى يؤدي الفهم والتفسير إلى كل الحالات والظواهر المشابهة لها فوضع أيدينا على أسباب مرض نفسي معين كالهستيريا مثلا يساعدنا في التعرف على أسباب مرض نفسي آخر كالقلق، وفي سمة التعميم تشترك العلوم الإنسانيّة مع العلوم الطبيعيّة والرياضيّة، إلاّ أنّ التعميم يكون بدرجة أقلّ في العلوم الإنسانيّة، وذلك لعدّة أسباب منها :

1- عدم التحليل الكافي للظاهرة والظروف المحيطة بها، وذلك يعود إلى شدة تركيب وتعقيد الظاهرة السلوكية كالمرض العقلي الذي تتشابك في حدوثه العديد من العوامل الوراثيّة والبيئيّة والميلاديّة.

2- السرعة في التعميم. .. وتعني التعجّل وعدم التروّي في الانتهاء إلى التعميمات أو الأحكام العامة من عدد قليل من الحالات الجزئية، حيث أن التعميم الناتج هو الذي يقوم على اختيار النماذج الجيدة المعبرة وعلى كثرة هذه النماذج وتنوعها

3- عدم تحقيق الموضوعية، وذلك لظهور دور العنصر الذاتي وخاصة في اختيار الأمثلة المواتية و المؤيدة لفكرة معينة مسبقة.

حيث يختلف قياس الأمور المادية كالطول والوزن والحجم عن الأمور المعنوية كالشعور أو العاطفة أو الوجدان من حيث تقدير وزن حجم معيّن يختلف عن تقدير ذكاء شخص ما أو مقدار حبّه وكرهه نحو شخص آخر، أو تقدير ذكائه، ذلك لأنّ وحدة القياس في الأمور المعنويّة ليست واحدة أو ليست ذات معنى واحد، كذلك فإنّ قياس ذكاء شخص ما يحتاج لموافقته وتوفر قدر معقول من الدافعيّة لبذل الجهد والطاقة والاستمرار في حل أسئلة مقياس الذكاء على خلاف قياس الأمور الماديّة.

9- لفظ المنهج لغة :

المنهج هو الطريق الواضح كالمنهج والمنهاج، وبالتحريك البهر وتتابع النفس، والفعل : كفرح وضرب وابتهج : وضح وواضح، ونهج الدابة : سار عليها حتى انبهرت، ونهج الثوب أي : أخلقه، كنهجه، كمنحه.

ونهج الثوب مثلثة الهاء أي : بلى، كأنهج ونهج، كغ : وضح وواضح، ونهج الطريق : سلكه واستنتج الطريق أي: صار نهجا، كأنهج ونهج فلان سبيل فلان أي : سلك مسلكه.

وطريق نهرج أي واسع، ونهرجها أي : جامعها.

نهج أي طريق نهج أي بيّن وواضح وهو النهج. قال أبو كبير : فأجزته بآفل تحسب أثره نهجا أبان بذي فريغ مخرف، والجمع نهجات ونهج ومنهوج، قال أبو ذؤيب : به رجمات بينهن مخارم نهوج لكباب الهجائن فيح وطرق نهجه وسبيل منهج كنهج ونهج الطريق وضحه، والمنهاج : المنهج، وفي التنزيل : لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا.

قال ابن بزرع : طردت الدابة حتى نهجت فهي ناهج في شدة نفسها وأنهجتها أنا فهي منهجة. ابن شميل : إن الكلب لينهج من الحر، وقد نهج نهجة قال غيره : نهج الفرس حين أنهجته أي ريا حتى صيرته إلى ذلك.

10- لفظ المنهج في اللغات الأخرى :

معنى هذا اللفظ : إنّه ترجمة لكلمة **méthode** الفرنسية، ونظائرها في اللغات الأوربية الأخرى كالإنجليزية **method** هو الطريقة أو الأسلوب أو الكيفية التي يصل بها العالم أو الباحث إلى نتائجه، أو هو وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة، وقد استعملها أفلاطون بمعنى البحث أو النظر أو المعرفة واستعملها أرسطو بمعنى (البحث) والمعنى الاشتقاق في الأصل لها من اليونانيّة يدل على الطريق أو المنهج المؤدي إلى الغرض المطلوب من خلال المصاعب والعقبات.

وفي عصر النهضة استعمل هذا اللفظ بمعنى طائفة من القواعد العامة المصاغة من أجل الوصول إلى حقيقة في العلم، حيث اهتم المناطقة بمسألة المنهج كجزء من أجزاء المنطق الأربعة وهي :

1- التصورات
2- الحكم
3- الرهان
4- المنهج

وقد عني بالمنهج في البلاغة والأدب ولم يهتم بالملاحظة والتجربة إلى درجة كافية، وفي القرن السابع عشر تمت الخطوة الحاسمة في سبيل تكوين المنهج.

فبيكون في كتابه " الأورجانون الجديد " سنة 1620م صاغ وديكارت حاول أن يكشف المنهج المؤدي إلى حسن السير بالعقل والبحث عن الحقيقة في العلوم سنة 1673م في كتابه " مقال في المنهج " ثم توالى الاهتمام بالمنهج حتى أصبح من التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة. إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، وإما من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين، فثمة إذن نوعان من المنهج :

أحدهما للكشف عن الحقيقة، ويسمى التحليل أو منهج الحل أو منهج الاختراع. والآخر وهو الخاص بتعليمها للآخرين بعد أن نكون قد اكتشفناها ويسمى بالتركيب أو منهج التأليف. ومن الملاحظ على هذا التعريف للمنهج أنه ناقص لأنه يتحدث عن الأفكار فقط لا عن الوقائع والقوانين المتضمنة في العملية المنهجية. ومن الممكن القول أن المنهج الاستدلالي والمنهج التجريدي قد تكونا في القرن السابع عشر الميلادي بصورة واضحة، فالمنهج معناه إذن الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة محددة، وهناك أنواع عديدة من المناهج.

11- أنـواع المناهـج :

والمنهج قد يكون مرسوما من قبل بطريقة تأملية مقصودة، وقد يكون نوعا من السير الطبيعي لعقل لم تحدد أصوله سابقا.

ذلك لأن الإنسان في تفكيره قد ينظم أفكاره ويرتبها فيما بينها حتى تنادي إلى المطلوب على أيسر وجه وأحسنه على نحو طبيعي تلقائي ليس فيه تحديد ولا تأمل لقواعد معلومة من قبل. فهذا منهج أيضا ولكنه منهج تلقائي في الفكر الإنساني.

أما إذا تأملنا في المنهج الذي سرنا عليه في تحصيلنا لمعارفنا العلمية وحاولنا أن نحدد قواعده ونسن له قوانين، وجدنا أن قوانين الفكر التي هي المبادئ الأساسية التي لا بد للفكر أن يطابقها كي يكون صحيحا والتي ترد عادة في الاستدلال – الاستنباطي إلى مبادئ هي :

1- مبدأ الذاتية أو مبدأ الهوية ومؤداه أن الشيء هو ذاته دائما فلا يختلط به غيره، ويستحيل أن يكون غير ذاته، ولا يلتبس به ما ليس منه.

2- مبدأ عدم التناقض ومؤداه أنه يستحيل أن يكون الشيء موجودا وغير موجود في آن واحد

3- المبدأ الثالث المرفوع ويطلق عليه أيضا الوسط المرفوع ومؤداه أن القضيتين المتناقضتين لا واسطة بينهما

4- مبدأ القياس ومبدأ التضامن الذي يقضي بأنه إذا كانت (أ) تتضمن (ب) وإذا كانت (ب) تتضمن (ج) فإن (أ) تتضمن (ج) لا محالة.

5- وهناك مبدأ آخر للاستدلال الاستقرائي وهو مبدأ السبب الكافي.

ونتبين أوجه الخطأ والانحراف من أوجه الصواب والاستقامة، ولقد كونا من هذا كله طائفة من القواعد العامة الكلية التي تخضع لها في المستقبل طرائق بحثنا، وإذا كان الأمر كذلك، فالمنهج يكون منهجا عقليا تأمليا كالمبادئ العقلية والتي هي جملة الحقائق البديهية بذاتها التي تستند إليها جميع الاستدلالات.

وهذه المبادئ تتسم بثلاث سمات جوهرية هي :

1- إنها كلية بمعنى أنها صادقة على جميع الأشياء ومشتركة لدى جميع الأذهان

2- إنها ضرورية بمعنى أنها تفرض نفسها على الذهن ولا يمكن نقضها

3- وإنها أولية بمعنى أنها تسبق التجربة مثل مبدأ السببية ومبدأ الحتمية وتسمى أيضا قوانين الفكر

إذن فالمنهج نوعان : منهج تلقائي وآخر تأملي وواضح أن المنهج التأملي يمكن أن يكون موضوعا لعلم المنطق لأنه يقوم على التأمل والشعور لا على التلقائية واللاشعور غير الواضح مع الملاحظة أن المنهج التأملي يقوم في الأصل على المنهج التلقائي.

ولكن ما الذي يقصد بالمنهج والمنهجية بمعناها العام ؟

12 المنهج بمعنـاه العـام :

المنهج هو البرنامج الذي يحدد لنا السبيل للوصول إلى الحقيقة أو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم. لذا من الممكن أن نفهم هذا اللفظ بمعناه العام حيث تدخل تحته كل طريقة تؤدي إلى غرض معلوم تريد تحصيله.

فهناك منهج للتعلم ومنهج للقراءة ومنهج للوصول إلى نتائج مادية كما هو في العلوم العلمية. ويمكن تمييز نمطين من المنهج في الطب : المنهج الوقائي من الجراثيم والمنهج العلاجي، وللتربية منهج وللدراسات على اختلافها مناهج، فهناك المنهج التاريخي الذي يعتمد على النصوص والوثائق التي هي مادة التاريخ الأولى ودعامة الحكم القوية فيتأكد للمؤرخ من صحتها ويفخمها على وجهها ولا يحملها الكثير من طاقتها. (10)

وهناك المنهج العلمي وهو خطة منظمة لعدة عمليات ذهنية أو حسية بغية الوصول إلى كشف حقيقة أو البرهنة عليها، والمنهج الذاتي أو الاستبطاني الذي يقوم على تفسير الظواهر في ضوء المشاعر والميول الداخلية، وأكثر ما يطبق في علم النفس ويتلخص في التأمل الباطني الذي ينصب على ما يجري في عالم الشعور، وتبعا لاختلاف العلوم تختلف المناهج، ولكنها يمكن أن ترد إلى منهجين هما الاستدلال والتجريب، ويضاف إليها منهج خاص بالعلوم الأخلاقية أو التاريخية هو المنهج الاسترادي أو التاريخي وهناك ما يعرف باسم المنهج الوصفي.

خاتمة :

يبقى علم النفس من أهم العلوم الاجتماعية و الإنسانية معا إذ نرفض التصنيف الأكاديمي على انه من العلوم الاجتماعية فقط بل في رأينا لايمكن فصله على غرار علم الاجتماع و علوم التربية و الاتصال و التاريخ عن دورها في تحليل الواقع و فهمه و معالجة إمراضه و سلوكياته و ظواهره بشتى أنواعها.

قائمة المراجع :

(1)عبد الرحمن العيسوي، **مناهج البحث العلمي**، دار الراتب الجامعية، القاهرة. ص: 55

(2)عبد الرحمن العيسوي، **مناهج البحث في علم النفس**، الدار الجامعية، جمهورية مصر العربية. ص:13

(3)محمد عبد الظاهر الطيب، **مناهج البحث في العلوم التربوية والنفسية**، مكتبو الأنجلو المصرية، 2000. ص :38

(4)إبراهيم عصمت مطاوع، **أصول التربية**، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1980 ص: 43

(5)زيدان عبد الباقي، **قواعد البحث الاجتماعي**، مطبعة السعادة، القاهرة، ط3، 1980 ص:12

(6) عبد الرحمان بدوي. **مناهج البحث العلمي**. وكالة المطبوعات. الكويت. ص: 20

(7)عبد المنعم الحنفي. **موسوعة علم النفس و التحليل النفسي مكتبة مدبولي**. القاهرة . ص : 31

(8)ماهر عبد القادرمحمد. **المنطق ومناهج البحث**. دار المعرفة الجامعية. الأسكندرية. ص:88

(9)محمود زيدان. **الأستقراء و المنهج العلمي**. مؤسسة شباب الجامعة. الأسكندرية. ص: 16

(10)فؤاد البهي السيد. **علم النفس و قياس العقل البشري**.دار الفكر العربي. طبعة 3.ص: 72